المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي | الإصدار الثالث عشر | تاريخ الإصدار: ٥-٥-٢٠٢٠م
ISSN: 2706-6495

# البلاغة العامة

## مفهومها ومبادئها في ضوء المشروع البلاغي لمحمد العمري

**اعداد الباحث: منير بورد**

باحث بسلك الدكتوراه، مختبر الكتابات الأدبية واللسانية، المدرسة العليا للأساتذة ، جامعة محمد الخامس – المغرب

Email: mounir.b2009@gmail.com

**ملخص**

نسعى من خلال هذا المقال إلى دراسة التعريف الذي قدمه الدكتور محمد العمري لـ "البلاغة العامة" في ضوء مشروعه البلاغي، وذلك من خلال محورين اثنين: أولهما يروم تحليل هذا التعريف المقترح واستخلاص المبادئ الأساسية التي يقوم عليها، ويتتبع مظاهر وتجليات هذه المبادئ في التراث البلاغي العربي، سيما وأن المؤلف اعتمد بشكل كبير على إسهامات البلاغيين العرب في صياغته لهذا التعريف، وثانيهما يروم الكشف عن مرجعيات هذا التعريف وهو مرتبط أشد ما يكون الارتباط بالمحور الأول؛ إذ لا يمكن فهم هذه المبادئ في معزل تام عن المرجعيات والمصادر الثاوية خلفها، وستتجه العناية في هذا المحور إلى محاولة الكشف عن مرجعيات مفهوم البلاغة العامة من خلال الوقوف على مختلف المصادر الكبرى التي استفاد منها الدكتور محمد العمري في صياغته لهذا التعريف، الذي يسعى إلى إعادة الاعتبار للبلاغة العربية في شموليتها وجمع مباحثها في نسقية تنسق البلاغات الخاصة أو النوعية. وهو مسعى كما هو معلوم صعب ومركب نظرا لتعدد الروافد الفكرية والأدبية والفلسفية المساهمة في نشأة البلاغة.

**الكلمات المفاتيح:** البلاغة العامة – الخطاب – الاحتمال – التأثير – الاختيار

ISSN: 2706-6495


## Abstract

This article aims to examin the definition that was presented by Mohamed El Omari in his rhetorical project: »The general rhetoric », through two major points. The first would be analysing his suggested definition and deduce its basic aspects, in addition to seeking those aspect's manifestations in the ancient arabic rhetoric ; especially that the researcher has strongly depended on the acient arab scientists in rhetoric in order to conceptualize his definition.

On the other hand, the second point will be discussed is the enlightenment of the backgrounds of his definition. Those backgrounds cannot be separated from the first point, because those mentionned aspects could not be understood separately from the background and sources behind it. Furthermore, this will lead us to study the backgrounds of the general rhetoric concept through standing on the several major sources that was availed to Dr Mohamed El Omari in conceptualizing this definition as a try to reconsider the global meaning of the arabic rhetoric and to collect its subjects in one structure that organize the privates rhetorics. Yet, it is a difficult and complicated goal indeed, due to the multiple epistemic, literature and philosophical sources contributing in rhetoric genesis.


**Key words:** The general rhetoric, Discourse, Probability, The influence, the choice.

## مقدمة:

معلوم أن تحديد المفاهيم خطوة أساسية في بناء البحث العلمي وتقدمه؛ فهي أشبه بميثاق يعقده الباحث مع القارئ بحيث يقدم له المفاهيم المركزية التي يقوم عليها موضوع البحث، من خلال شبكة من المصطلحات تنير جوانب الموضوع وتسمح بالوقوف على نسقه المعرفي، ذلك أن تحديد المفاهيم يساعد على ضبط الموضوع وتدقيقه وتطويره أكثر، خاصة إذا تعلق الأمر بموضوع جديد كما هو الحال بالنسبة للبلاغة في الدراسات العربية الحديثة؛ فالمتتبع لأبرز الدراسات المؤسسة في هذا المجال سيلاحظ أن عناية الدارسين اتجهت إلى ضبط المفاهيم من خلال منظومة مصطلحية نسقية تسعى إلى بناء الموضوع من جهة وتطويره من جهة ثانية، إذ لما "كان تدقيق المفاهيم قد ساهم في ضبط مختلف ميادين المعرفة وأعطاها صفتها الخاصة المميزة لها فإن ذلك قد ساعدها أكثر على تحديد موضوعها ومكنها من التطور السريع في النهاية" (بوحسن، ٢٠٠٣، ص ١٣).

ولا يخفى على الباحث في مجال البلاغة الاهتمام الكبير الذي حظي به هذا المفهوم في الدرسات البلاغية قديما وحديثا؛ فاهتمام الأوائل بهذا المفهوم واضح، إذ قلبوا صيغة "البلاغة" على مختلف صورها وضبطوا جملة معانيها اللغوية، كما اهتموا بدلالتها الاصطلاحية وقدموا جملة من التعريفات تكشف بجلاء اختلاف البلاغيين العرب في تحديد ماهيتها؛ فمفهومها عند الجاحظ وابن سنان الخفاجي، مثلا، بعيد كل البعد عن مفهومها عند عبد القاهر الجرجاني والسكاكي، ومفهومها عند هؤلاء يختلف كل الاختلاف عما أورده بلاغيو القرن السادس الهجري بصددها كالصلاح الصفدي وابن حجة وغيرهم، ويرجع ذلك إلى كون البلاغة نشأت عن روافد فكرية وأدبية متعددة تجعل تعريفها والإلمام بمكوناتها أمرا صعبا، وفي هذا السياق يقول حازم القرطاجني: "وكيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار" (القرطاجني، ١٩٨٦، ص ٨٨) بل إنه شبه حال من ظن إمكان تحصيلها والاستفادة منها في وقت وجيز بحال من قضى ليلته في تصفح كتب الطب ثم أصبح يحرر وصفة طبية لإسعاف صديقه المريض فعجل برحيله إلى العالم الآخر، وقد انعكس هذا الأمر على الدراسات البلاغية الحديثة بحيث نجد الباحثين كلما تقدموا في هذا المجال إلا وعادوا إلى نقطة البداية وهي التساؤل عن ماهية البلاغة. والأمر نفسه حاضر في الثقافة الغربية فتاريخ الخطابة بدءا من إرهاصات نشأتها مع كوراكس وجورجياس ومرورا بقمة عطاءاتها مع أفلاطون وأرسطو ووصولا إلى أبرز روادها في العصر الحديث كرولان بارت وجيرار جونيت وبيرلمان وميشيل مايير يشهد على الاختلاف في تحديد مفهومها. وقد تصدى مجموعة من الباحثين لهذا الموضوع في العقود الأخيرة من القرن الماضي نذكر منهم الدكتور محمد العمري الذي سعى في مشروعه البلاغي بعد رحلة طويلة فاقت أربعين سنة من البحث والتنقيب إلى كشف سر هذا المفهوم وتعريفه تعريفا يتسم بالإحاطة والشمول. وسنسعى في هذا المقال إلى تحليل مفهوم البلاغة الذي اقترحه الدكتور محمد العمري من خلال مستويين أساسيين أولهما يروم تحديد المبادئ الأساسية التي يقوم عليها هذا التعريف، وثانيها يسعى إلى الكشف عن المرجعيات أي المصادر التي استثمرها الدكتور محمد العمري في تحديده لمفهوم البلاغة.

## أهداف البحث

- تحديد المبادئ الأساسية لمفهوم البلاغة العامة من خلال تحليل العناصر التي يتألف منها التعريف الذي قدمه الدكتور محمد العمري؛
- رصد مظاهر وتجليات هذه المبادئ في التراث البلاغي العربي؛
- الكشف عن المصادر الأساسية التي استفاد منها الدكتور محمد العمري في تحديده لمفهوم البلاغة.

### ١. المبادئ العامة لـ "البلاغة العامة"

إن البحث في البلاغة مهمة شائقة وشاقة في آن واحد: هي شائقة لأنها تدفعك إلى تتبع تاريخ البلاغة العربية وقراءة ما يزخر به من إنجازات واجتهادات تكشف بما لا يدع مجالا للشك الاهتمام الكبير الذي حظيت به البلاغة في الثقافة العربية، فمن المعلوم أن العلماء العرب أولوا عناية كبيرة للبلاغة باعتبارها علما لدراسة النصين القرآني والشعري، حيث اتجهت عنايتهم إلى الكشف عن مظاهر الإعجاز في القرآن من خلال الوقوف على ما يمتاز به من نظم بديع وترتيب وتنسيق وجزالة في الألفاظ وسمو في المعاني، معتمدين في ذلك على الشعر العربي الذي يعد وسيلة أساسية لإثبات هذا الإعجاز.

ISSN: 2706-6495

وهذا يعني أن البلاغة العربية لم تنشأ مكتملة الأبواب والمباحث، وإنما نشأت – شأن كل علم في بدايته – مجرد أفكار وملاحظات متناثرة على هامش العلوم العربية التي سبقتها إلى الوجود، والتي لم تكن هي الأخرى قد تبلورت على نحو نهائي، فتعددت بذلك المجالات المعرفية المرتبطة بالبلاغة التي اكتسحت كل الحقول واصطبغت بشتى الألوان؛ بألوان المجالات التي تشكلت فيها واحتضنت نشأتها، فهي تتأثر وتؤثر، تعطي وتأخذ، وبهذا تشعبت منطلقاتها ومصادرها وتنوعت أسئلتها واهتماماتها، واختلف البلاغيون في تحديدها بين من يعدها علما تحكمه ضوابط ومبادئ محددة، وبين من يجعلها فنا من فنون القول، وبين من ينظر إليها بوصفها ملكة من الملكات، لا تحصل إلا بطول المطالعة والمران والاحتكاك بالكلام البليغ في المظان الأدبية.

والحق أنه منذ أخذ بعض الباحثين على عاتقهم مهمة إعادة قراءة التراث البلاغي العربي قراءة نسقية زال عن البحث البلاغي هذا الغموض الذي يكتنفه، وأصبحت الصورة التي تقدمها إلينا كتب البلاغة واضحة ومتكاملة.

على أن هذه الصورة المتكاملة هي ذاتها التي جعلت من البحث في البلاغة مهمة شاقة، فلكي يصل الباحث في هذا الميدان إلى تكوين صورة متكاملة للبلاغة العربية ورسم خريطة تبين حدودها وامتداداتها، ينبغي أن يلم بكافة روافدها من نقد وتفسير ودراسات شعرية ودراسات خطابية...الخ، أي أن بحثه يتشعب إلى حد كبير ويكاد يصبح من المستحيل جمع كل هذه المباحث والوصول منها إلى تعريف جامع واضح المعالم للبلاغة، إلا بعد جهد ضخم في المجال الفكري، وفي مجال التحصيل في الوقت ذاته، ولعل أهم من اضطلع بهذه المهمة الدكتور محمد العمري، الذي عمل في مشروعه البلاغي على قراءة التراث البلاغي قراءة نسقية، تروم إعادة تعريف البلاغة تعريفا عاما يراعي الجهود الحديثة في مد سلطانها لاسترجاع ما ضاع منها في ظروف وهنها، ويستوعب كل منجزات البلاغة العربية، فبعد الركود الذي عاشته البلاغة العربية بفعل مسلسل الاختزال، الذي بدأ مع السكاكي وخطا خطوة واسعة مع القزويني ومن سار على دربه من الشراح والملخصين، وبلغ أوجه مع رواد التأليف المدرسي في العصر الحديث، ظهرت مجموعة من الدراسات البلاغية تروم نفض الغبار عن بلاغة الانتشار[١] (البلاغة العامة) ورد الاعتبار لمجموعة من المباحث والعلوم التي تستوعبها هذه البلاغة، وفي هذا السياق يأتي المشروع البلاغي للدكتور محمد العمري لبناء نظرية بلاغية حديثة تستمد مقوماتها من التراث البلاغي العربي، ومن الدراسات البلاغية الحديثة خاصة في مجال اللسانيات التداولية ونظريات التواصل، لتصبح بذلك مبحثا علميا عصريا ينفتح على مختلف أصناف الخطاب.

وبناء على هذا سنحاول في هذا المقال تحديد المبادئ العامة للبلاغة العامة من خلال تعريف أورده الدكتور محمد العمري في كتابه "المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة"، وقد اخترنا هذا الكتاب دون غيره من الكتابات في مجال الدراسات البلاغية لسببين اثنين؛ أولهما يرجع إلى طبيعة هذا الكتاب وموقعه من مؤلفات الباحث؛ فمن المعلوم أن كتاب "المحاضرة والمناظرة" نتاج مسيرة طويلة من البحث البلاغي،

[١]. يوظف الأستاذ محمد العمري مصطلح "بلاغة الانتشار" في مقابل "بلاغة الانحسار" أي البلاغة الضيقة المختزلة في العلوم الثلاثة المعروفة: علم البيان، علم المعاني، علم البديع. ويعرف العمري بلاغة الانتشار بقوله: "العلم الذي يستوعب مجموع الاجتهادات التي ساهم بها المنشغلون بالخطاب الاحتمالي المؤثر من زوايا عديدة: البديعيون ونقاد الشعر، والبيانيون وعلماء الخطابة، ومنظرو الإنشاء والكتابة، وقراء نظريتي الشعر والخطابة عند اليونان، من بداية التفكير البلاغي إلى القرن الخامس الهجري، بل حتى السابع منه حيث كان حازم آخر المجتهدين". لمزيد من التفاصيل انظر كتاب "المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة"، محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٧، ص ١٣، ٢٠.

ISSN: 2706-6495

بحيث جمع فيه المؤلف كل القضايا والإشكالات التي طرحها في مؤلفاته السابقة، معتمدا في ذلك على أساليب بيداغوجية متنوعة في تقديم المادة وتقليبها على أوجه مختلفة مستحضرا جمهورا واسعا من القراء، ويرجع السبب الثاني إلى طبيعة التعريف الذي أورده الأستاذ العمري في هذا الكتاب؛ بحيث يلاحظ أنه يستوعب المساهمات البلاغية العربية القديمة من جهة ويراعي الجهود الحديثة من جهة ثانية.

ولما كان مجال البلاغة مفتوحا على الاجتهاد والتعديل كلما ظهر إبدال معرفي جديد، فقد عمد العمري إلى إعادة تعريف البلاغة في كل مؤلف من مؤلفاته، من خلال التذكير بمبادئها الأساسية وتوسيع مفهومها ليشمل العناصر والمبادئ الجديدة، بحيث كلما تقدم المؤلف في البحث إلا وعاد إلى نقطة البداية ليتساءل: ما هي البلاغة ؟ أو على الأقل: أين توجد البلاغة ؟

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار التعريف الوارد في كتاب "المحاضرة والمناظرة" للأستاذ العمري آخر ما انتهى إليه البحث البلاغي في هذا المستوى أي تحديد ماهية البلاغة، ولكن هذا لا يعني أنه التعريف النهائي للبلاغة، وإنما هو تعريف يظل مفتوحا على التعديل والمراجعة كلما ظهرت الحاجة إلى ذلك، إذ البلاغة كسائر العلوم الإنسانية مفهوم تاريخي يتغير بحسب الثقافات والحقب؛ فقد "عرفت على مدى تاريخها الطويل، عددا من التعاريف المتفاوتة القرب والبعد، تتنافى أحيانا ولكنها تتداخل أحيانا أخرى تداخلا جزئيا. وإلى اليوم ما زلنا مضطرين لمواجهة غياب الوحدة في هذا المجال، كما لو أن الضبابية واللعنة الأصليتين اللتين ألصقتا بها قديما ما زالتا تطاردانها" (العمري، ٢٠١٧، ص ٦٥).

يعرف الدكتور محمد العمري البلاغة العامة في كتابه "المحاضرة والمناظرة" تعريفين اثنين؛ يكشف الأول عن روافد البلاغة العامة في التراث العربي؛ إذ يقول ما نصه "البلاغة العامة عندنا، وحسب التصور العربي هي العلم الذي يستوعب مجموع الاجتهادات التي ساهم بها المنشغلون بالخطاب الاحتمالي المؤثر من زوايا عديدة: البديعيون ونقاد الشعر، والبيانيون وعلماء الخطابة، ومنظرو الإنشاء والكتابة وقراء نظريتي الشعر والخطابة عند اليونان" (العمري، ٢٠١٧، ص ١٣)، وقد جاء هذا التعريف كرد فعل إزاء عملية الاختزال التي تعرضت لها البلاغة العربية، إذ يكشف عن أصولها وامتداداتها والمباحث والعلوم المتدخلة في بنائها، ومن ثم فإنه يرسم خريطة عامة لأرضها تكشف عما ضاع منها في ظروف وهنها.

والثاني – وهو الذي يهمنا – يعرض للأسس الإبستمولوجية للبلاغة العامة وآليات اشتغالها في التخييل (الشعر) والتداول (الخطابة)، حيث يعرف البلاغة بقوله "علم الخطاب الاحتمالي المؤثر، المنجز بالاختيار مناسبة أو إغرابا" (العمري، ٢٠١٧، ص ٥١).

يقدم هذا التعريف مجموعة من المفاهيم تعتبر المفاتيح الأساسية لتحديد ماهية البلاغة العامة وإدراك كل أبعادها، وتتمثل هذه المفاهيم في: الخطاب، الاحتمال، التأثير، الاختيار.

وعليه سنحاول فيما يلي دراسة كل مفهوم على حدة على ضوء المعطيات التي تقدمها مؤلفات الأستاذ العمري لأجل تحديد المبادئ العامة للبلاغة العامة من جهة واستخلاص ما يمكن استخلاصه من جهة ثانية.

### أ. الخطاب

ينطلق الدكتور محمد العمري في تعريفه للبلاغة العامة من اعتبارها علما يهتم بدراسة الخطاب، وهو بذلك يحدد مجال اهتمامها وانشغالها، والخطاب لغة: جاء في معجم الوسيط مادة (خطب)؛

خطب الناس وفيهم وعليهم خطابة وخطبة: ألقى عليهم خطبة، وتخاطبا أي تكالما وتحادثا، والخطاب الكلام، وفي التنزيل العزيز: فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب، وفصل الخطاب ما ينفصل به الأمر من الخطاب، وفي التنزيل العزيز: وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب، وفصل الخطاب الحكم بالبينة أو الفقه في القضاء أو أن يفصل بين الحق والباطل (إبراهيم مصطفى وآخرون، ١٩٧٢، ص ٢٤٢ - ٢٤٣)، والواقع أن جانبا مهما من هذه الدلالة المعجمية يحضر في حد الخطاب الاصطلاحي كذلك، بصورة جلية، على نحو ما سنرى فيما يلي.

لقد قدمت للخطاب في الاصطلاح العلمي تعاريف من الوفرة بمكان مما يدل على انشغال الباحثين بتحديد طبيعته وتخومه وآليات اشتغاله، ولعل أهم من اضطلع بهذه المهمة الدكتور أحمد المتوكل في كتابه "قضايا اللغة العربية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص" بحيث عمل على تحديد ماهيته وتمييزه عن مصطلح لطالما اقترن به، ويتعلق الأمر بمصطلح النص، يقول في أعقاب هذا التمييز: "إن مصطلح الخطاب يوحي أكثر من مصطلح النص بأن المقصود ليس مجرد سلسلة لفظية (عبارة عن مجموعة من العبارات) تحكمها قوانين الاتساق الداخلي (الصوتية والتركيبية والدلالية الصرف) بل كل إنتاج لغوي يربط فيه ربط تبعية بين بنيته الداخلية وظروفه المقامية (بالمعنى الواسع) (المتوكل، ٢٠٠١، ص ١٦)، وعليه فإن مفهوم الخطاب من هذا المنظور يقوم على عنصرين اثنين أولهما الإنتاج اللغوي أي مجموعة من الجمل المترابطة فيما بينها والخاضعة لقوانين محددة، ومن ثم فهو ينطبق على "كل بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات" (طه عبد الرحمان، ٢٠١٠، ص ٣٥)، والثاني المقام بحيث إن هذا الإنتاج اللغوي أو الخطاب مرتبط أشد ما يكون الارتباط بالملابسات المقامية التي ينتج فيها، ومعنى هذا أن لبنية الخطاب علاقة بوظيفته بل إنها خاضعة لهذه الوظيفة، على اعتبار أن وظيفة الخطاب الأساسية التي تتفرع عنها باقي الوظائف هي وظيفة التواصل. وبناء على هذا فإن مفهوم الخطاب ينصرف إلى "كل إنتاج لغوي منظور إليه في علاقته بظروفه المقامية وبالوظيفة التواصلية التي يؤديها في هذه الظروف" (المتوكل، ٢٠٠١، ص ١٧).

يبدو أن هذا التعريف الذي تقدمه اللسانيات الوظيفية يرتكز على نظرية التواصل وما يستتبعه ذلك من شروط مقامية، وهو بذلك يقربنا من "البلاغة العامة الحديثة في أحد همومها الخطابية وهو الهم التداولي الذي يركز اهتمامه على مقامات التواصل، ويجعل ما سواها تابعا لها ساعيا إلى إدماج الخطاب الشعري والحجاجي في البنية اللسانية" (العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ٢٠١٣، ص ٥٦)، وتجدر الإشارة هنا إلى أن مفهوم الخطاب ينفتح على مجموعة من المجالات، إذ لما كان الخطاب "عملا اجتماعيا تعتمد فيه العبارة، أعني الكلمات والمعاني المستخدمة فيها وعلى الموضع الذي ألقيت فيه العبارة" (مكدونيل، ٢٠٠١، ص ٦٧) فإن أنواعه تتعدد وتختلف تبعا لهذه المواضع والمقامات والممارسات الاجتماعية التي تتشكل فيها هذه الخطابات، وهكذا نصبح أمام أنواع متنوعة من الخطابات: الخطاب الشعري، الخطاب الإقناعي، الخطاب السردي، الخطاب السياسي، الخطابي الديني، الخطاب الإشهاري... وعليه فإن البلاغة علم يضطلع بالبحث في خصوصية هذه الخطابات بحيث نجد لكل خطاب من هذه الخطابات المذكورة بلاغة خاصة (بلاغة الخطاب السياسي،بلاغة الخطاب الإشهاري، بلاغة الخطاب الديني، بلاغة الخطاب الشعري، بلاغة السيرة الذاتية...) تبحث في خصائصه ومقوماته، وهي بلاغات على اختلاف أسمائها وتوجهاتها تلتقي في مجموعة من المبادئ العامة التي تشكل الخيط الناظم الذي يخترق هذه البلاغات؛ "فالبلاغة العامة تستلزم بلاغات خاصة والبلاغات الخاصة تقتضي بلاغة عامة، والبلاغة العامة تتضمن عنصرا منسقا" (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، ص ٧٦).

**ب. الاحتمال**

وردت كلمة الاحتمال صفة للخطاب في تعريف الدكتور محمد العمري للبلاغة ومن ثم فهي تقييد وتحديد لطبيعة الخطاب المتناول بالدراسة والتحليل. والحديث عن الاحتمال يقتضي الوقوف على نظرية الشبيه بالحقيقة، باعتبارها الأساس الذي تفرع عنه من جهة والإطار الفلسفي للبلاغة اليونانية من جهة ثانية، وترتكز هذه النظرية على أطروحة مفادها أن "الحقيقة لا وجود لها في ذاتها، بل هي ثمرة اتفاق بين الناس، تتم بلورته من خلال التداول فيما بينهم أي بواسطة الخطابة، وأن العلم الأسمى هو ممارسة الاستدلال الصحيح في أي موضوع" (بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ٢١).

يفهم من هذا الكلام أن المجال الذي تهتم به البلاغة هو مجال نسبي تطبعه المرونة، ولا يمكن الحسم فيه بواسطة البرهنة الصارمة، ومن ثم فالحقيقة رهينة بمجموعة من العناصر على رأسها المقام ونوعية المخاطبين وشخص الخطيب، مما يجعل منها عرضة للتفنيد بحيث تظهر الحاجة إلى إعادة النظر فيها كلما ظهر حجاج مضاد، لأن مدار الحديث قضايا خلافية لا تحتمل الحسم القاطع النهائي وإنما يسعى الخطيب فيها إلى الاقتراب من ملامسة الحقيقة بحسب اعتقاده، وهكذا فالمحتمل في الخطيب الذي "تبقى خلاصاته مرتبطة برأيه الشخصي وتتدخل فيها عناصر خارجة عن التفكير العقلاني المحض كالأهواء والمصالح والطباع..." (بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ٥٩)، كما ينبع الاحتمال من بناء الخطابة القائم على ادعاء الصدق مع احتمال الكذب، كما أنه موجود في المتلقي وتراتبية القيم عنده، وعليه فمجال البلاغة هو مجال احتمال "والحديث في هذا المجال عن حقيقة ثابتة هو خروج عن نطاقها، وفتح للباب على مصراعيه أمام قمع الرأي الآخر وأمام التحكم والاستبداد" (بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ٥٩).

لقد بنى الدكتور محمد العمري تصوره للاحتمال في البلاغة العامة على أساس ثلاثة تصورات لأعلام مكرسين عند دارسي البلاغة القديمة والحديثة، أولها تصور الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي يرى أن الاحتمال أساس العدول (الانزياح)، بحيث لا تحصل المزية في تركيب ما إذا كان يحتمل وجها واحدا وإنما تحصل في التركيب الذي يحتمل أوجها متعددة، ويقدم الأستاذ العمري المثال الذي أورده الجرجاني في الدلائل ويتعلق الأمر بآية: "وجعلوا لله شركاء الجن"[٥] (الأنعام، الآية ١٠٠) إذ يرى أنها تحتمل وجها آخر غير الذي جاءت عليه يتمثل في تقديم كلمة الجن عوض تأخيرها، غير أن المتأمل للتركيبين سيجد أن الأول متميز عن الثاني بل وأفضل منه، ويرجع ذلك إلى سببين اثنين أولهما مرتبط بأهمية مكونات التركيب بحيث جرى تقديم لفظ الجلالة "الله" نظرا لأهميته، وهذا الأمر يذكرنا بقولة صاحب الكتاب "يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم" (الجرجاني، ١٩٩٢، ص ١٠٧) ، والثاني مرتبط بما يفتحه التركيب الثاني (تقديم الجن) من تأويل بحيث يبقى المجال فتوحا للتساؤل عن شركاء الله تعالى، بخلاف التركيب الأول الذي ينفي الشركة عن الجن وغير الجن.

وبهذا يرى الدكتور العمري أن المزية التي شكلت مدار البحث عند عبد القاهر الجرجاني تنحصر "في ما أساسه الاحتمال؛ فلا يكون تركيب ما متميزا حتى يكون اختيارا من بين اختيارات تقر النفس أنه أحسنها، ولا تكون صورة بلاغية حتى تكون من بين صور هي أحسنها" (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، ص ٤٥).

ويتمثل التصور الثاني في تصور شاييم بيرلمان رائد البلاغة الجديدة في بعدها الخطابي، الذي أكد في مقدمة كتابه المشترك مع تيتيكا المعنون بـ"مصنف في الحجاج" على أن مجال الخطابة أو الحجاج هو مجال المحتمل؛

أي أن الأمر يتعلق بقضايا خلافية تحتمل أوجها متعددة بل ومتناقضة يتصدى للدفاع عنها خطيبان مختلفان، إذ "ما من محاجة إلا والباعث عليها وجود شك في مدى صحة فكرة ما" (صولة، ٢٠١١، ص ١٦)، لأن مجال الحجاج هو مجال التعدد والاختلاف والخصوصية والارتباط بالمقام، بخلاف المنطق الرمزي والعقلانية القائمة على الاستدلال حيث أحادية المعنى وتكون نتائجه مما يفهمه الناس جميعا بدون اختلاف بينهم، ولا يثير تأويلها أي مشاكل أو مسائل خلافية بينهم، وبهذا يكون منطق القيم الذي سعى كل من بيرلما وتيتيكا إلى بنائه مجال احتمال ونسبية لا مجال بداهة ويقين.

بينما يتمثل التصور الثالث في تصور بول ريكور الذي يرى أن الشعرية والخطابية تتقاطعان في منطقة الاحتمال، بحيث إنهما يلتقان في كونها يعالجان إنتاجا لنصوص نواتها الاحتمال؛ فالشعرية تعني عند أرسطو إنتاج الخطاب، والخطابية ليست شيئا آخر سوى تركيب الخطاب، غير أنه يرى أنهما وإن كانا يتقاطعان في منطقة المحتمل؛ فهذا يعني مجيئهما من مكانين مختلفين، وتوجههما نحو غرضين مختلفين، بحيث ينزع "كل منهما نحو قطب يختلف عن القطب الذي يتجه إليه الآخر: الشعرية نحو الأسطرة والتطهير، والخطابية نحو الاستمالة والإقناع" (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، ص ٤٦).

ومهما يمكن فإن الخيط الناظم للتصورات الثلاثة التي أوردها الدكتور محمد العمري في معرض حديثه عن مبادئ البلاغة العامة هو الاحتمال، بحيث تشترك كلها بالرغم من اختلاف منطلقاتها وتوجهاتها وأهدافها في هذا الأساس المستمد من الخطابة الأرسطية.

وعلى هذا الأساس عمل الأستاذ العمري على التنسيق بين الخطابين الشعري والخطابي باعتبارهما خطابين احتماليين، معتمدا في ذلك على المقابلة القضوية بين الوجود واللاوجود التي بني عليها تفريق أرسطو بين الشعرية والخطابية؛ حيث الشعر لا وجود يحتمل الوجود والخطابة وجود يحتمل اللاوجود، مقترحا بذلك قراءة عربية لهذه المقابلة القضوية تتمثل في كون الشعر كذب يحتمل الصدق والخطابة صدق يحتمل الكذب، وهكذا يتصل الخطابان في منطقة الاحتمال وهي منطقة "واسعة بشكل يجعلها كافية لقيام علم عام للشعرية والخطابية هو علم البلاغة" (العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ٢٠٠٤، ص ١٥).

يتحصل من السابق ذكره أن الخطاب الاحتمالي يتفرع إلى اتجاهين اثنين؛ أولهما حجاجي تداولي يروم حمل المخاطب على التصديق ودفعه إلى القيام بفعل معين، والثاني شعري تخييلي يقوم على الوجدان والتوهيم، وعليه فالبلاغة علم يضطلع بوظيفة تتبع مظاهر وتجليات الخطابين في كل المجالات التي يثبتان فيها قدرا من الحضور.

### ج. التأثير

لا يستقيم الحديث عن الاحتمال دون استحضار مقوم آخر من مقومات الخطاب الذي تهتم البلاغة العامة بدراسته، ويتعلق الأمر بالتأثير ذلك أن الخطاب الذي تتناوله البلاغة بالدراسة والتحليل "يقتضي أثرا وتفاعلا بين متخاطبين فعليين (قائمين) أو مفترضين (متوقعين) درجات من التوقع، قد تقترب من الصفر، وهذا الأثر لا يعدو أن يكون طلبا للتصديق (أو التسليم بدعوى أو أطروحة) أو طلبا للتخييل والتوهيم" (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، ص ٧٣).

يفهم من هذا الذي تقدم أن التأثير يتحدد تبعا لطبيعة الخطاب؛ فالخطاب الحجاجي يروم التأثير في المتلقي عن طريق حمله على التصديق بأطروحة أو دعوى معينة؛ أي عن طريق الإقناع ويتحقق هذا الأثر بواسطة مجموعة من الوسائل،

ISSN: 2706-6495

لعل أهمها ما تناوله أرسطو تحت عنوان الإيتوس والباتوس واللوغوس، إذ يقول ما نصه: "من بين وسائل الإقناع المقدمة بواسطة الخطاب هناك ثلاثة أنواع، فبعضها يكمن بالفعل في خلق من يتكلم (الإيتوس) والأخرى في عملية جعل السامع في هذه الحالة أو تلك (الباتوس)، والأخرى في الخطاب (اللوغوس) نفسه بواسطة كونه يبرهن أو يظهر أنه يبرهن" (بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ٢١٣).

وهكذا تنقسم وسائل الإقناع إلى ثلاثة أقسام تبعا لمكونات العملية التواصلية؛ فالإيتوس يتم بواسطة خلق الخطيب حين يصاغ الخطاب بشكل يجعل من يتكلم أهلا للثقة، ذلك أن "الخطيب الذي تتوفر فيه الفضيلة والتلطف للسامعين يوحي بالثقة إلى من يسمعونه" (العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ١٩٨٦، ص ٢٥) ، ومن ثم فالخطيب يصبح مقنعا لا بسبب أفكاره ومنطقه بل بسبب الثقة التي يفرغها عليه الجمهور، نتيجة تملك الخطيب ناصية الخطابة وفنون الاستدراج الفعالة. بينما يتحقق الباتوس من خلال نوازع المتلقي الذاتية؛ أي ما يهز الذات التي يتوجه إليها الخطيب بالخطاب وما يغريها ويحركها؛ إن الأمر يتعلق بواجهة حجاجية لا تستند على المقومات الموضوعية وإنما تعتمد على القيم الذاتية أو الانفعالية، وعليه فالخطيب مطالب بمعرفة "الأحوال العاطفية لمستمعيه من غضب ورحمة وخوف وما يصحبها من لذة وألم حسب الأعمار والطبقات" (العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ١٩٨٦، ص ٢٥) لأجل تحقيق الغرض من الخطاب المتمثل في الإقناع، ذلك أن استثمار النوازع الذاتية والميولات العاطفية في بناء الخطاب الحجاجي من شأنه قلب العواطف والاختيارات من النقيض إلى النقيض، وقد حظي هذا الموضوع باهتمام كبير في البلاغة العربية، ولعل أبرز تجل لذلك صحيفة بشر بن المعتمر التي أوردها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين"، حيث كان مدار الحديث فيها حول مقتضى الحال وما يتصل به من مراعاة لأحوال المستمعين وأقدارهم وطبقاتهم.

في حين تتحقق حجة اللغوس من خلال الحجج والبراهين التي يتضمنها الخطاب، ومن ثم "فإن الإقناع يحدث عن الكلام نفسه إذا أثبتنا حقيقة أو شبه حقيقة بواسطة حجج مقنعة مناسبة للحالة المطلوبة" (بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ٧٣)، وقد حظي هذا المستوى باهتمام كبير من قبل أرسطو نظرا لأهميته في بناء الخطابة، فهو وإن كان يتعامل مع المستويات الثلاثة: الإيتوس (أخلاق الخطيب) والباتوس (الأحوال النفسية للمستمعين) واللوغوس (خاصيات الخطاب) على قدم المساواة فإنه يظهر من حين لآخر أهمية المستوى الثالث، ويتجلى ذلك بشكل واضح في استنكاره تجاهل دارسي الخطابة للمقومات المحايثة أو المنطقية أو الموضوعية كما استنكر تشديد هذه الدراسات على المقومات الانفعالية أو الذاتية؛ بحيث يقول "إن الذين يحررون اليوم المصنفات حول الخطابة لا يعالجون إلا جزءا صغيرا. إن البراهين وحدها هي ذات طابع صناعي حقا، وكل ما عداها فهي مجرد أشياء زائدة، والحال أنهم لا يقولون شيئا بصدد القياس المضمر وهو الذي يمثل جسد البرهان، إنهم لا يتطرقون في أغلب الحالات إلا إلى أمور لا علاقة لها بالموضوع"(Aristote, 1991, p 76) ، وبهذا يظهر أن أرسطو ينحاز بشكل كبير إلى المقومات الموضوعية على حساب المقومات الانفعالية، وقد انتبه ابن رشد إلى أهمية هذه المقومات الموضوعية من خلال حديثه عما أسماه بعمود البلاغة، بحيث يميز بين عناصر جوهرية في الخطابة تتمثل في مجموع الحجج القائمة في الأقيسة الخطابية وهي أقيسة بلاغية، وعناصر غير جوهرية مساعدة للأولى تتمثل في الجانب الخارجي وكل ما من شأنه تحقيق نوع من التزيين والتنميق.

وكيفما كان الأمر فإن الوسائل التي تحقق الأثر الإقناعي عند أرسطو يمكن أن تصنف إلى نوعين اثنين؛ أولهما ذاتي يتمثل في الإيتوس والباتوس أي سيكولوجية الباث وسيكولوجية المتلقي أو المستمع، والثاني موضوعي يتجلى في مجموع الحجج المنطقية التي يوظفها الخطيب لإثبات صحة دعوى ما أو حمل المتلقي على القيام بفعل معين.

أما الخطاب الشعري فهو خطاب تخييلي يروم التأثير في المتلقي من خلال الوجدان والتوهيم، ولعله من المفيد ونحن في معرض الحديث عن الوظيفة التأثيرية للخطاب الشعري أن نقدم تعريف حازم القرطاجني للشعر الذي سلط فيه الضوء على وظيفته، فقدمها على ما به تتحقق هويته، بل إنه، وهو يتحدث عن مقومات هذه الهوية ربط أهميتها بما تحدثه على صعيد الوظيفة التأثيرية؛ بحيث يقول "الشعر كلام موزون مقفى، من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك. وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب. فإن الاستغراب والتعجب حركة النفس؛ إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها" (القرطاجني، ١٩٨٦، ص ٧١).

وقد تعمدنا إيراد هذا التعريف رغم طوله لما يكشفه من وعي تام بأهمية الوظيفة التأثيرية للخطاب الشعري من جهة، والآليات الموظفة لتحقيق هذا الأثر من جهة ثانية؛ فالخطاب الشعري كما هو معلوم يقوم على آلية التخييل التي تروم تحقيق الإذعان والافتتان لدى المتلقي، بحيث يحصل هذا الإذعان حين تنتاب المتلقي ألوان من اللذة، مردها إلى ما يتضمنه من تخييلات "تعجب وتخلب وتروق وتونق النفس وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ولا يخفى شأنه" (الجرجاني، أسرار البلاغة، ١٩٨١، ص ٣١٧)، ويرجع ذلك إلى قدرة الشاعر على الاختراع والابتداع بحيث تغدو الصورة المتخيلة أشد فتنة وأكثر تأثيرا في المتلقي من المرجع مصدر التخييل، ولعل هذا ما يفهم من قول حازم القرطاجني: "إن الأقاويل الشعرية ربما كان التحرك لما يخيل من محاكاتها أشد من التحريك لمشاهدة الشيء الذي حوكي، وابتهاج النفس بما تتخيله من ذلك فوق ابتهاجها بمشاهدة المخيل" (القرطاجني، ١٩٨٦، ص ١٢٦ - ١٢٧)، وبهذا يظهر أن جمالية النص وفتنته تتحقق بالنظر إليه من زاوية أثره؛ أي أن قيمة الخطاب الشعري رهينة بما يحدثه من تأثير على المتلقي.

وبناء على ما تقدم يمكن القول، إن الخطاب الاحتمالي ببعديه الخطابي (التصديقي) والشعري (التخييلي) يقوم على مبدأ التأثير؛ إذ يسعى المتخيل إلى التأثير في المتلقي من خلال المراوحة بين المعاني الشعرية وتنويع الأساليب، لأن النفوس كما يقول حازم القرطاجني "تحب الافتتان في مذاهب الكلام، وترتاح للنقلة في بعض ذلك إلى بعض" (القرطاجني، ١٩٨٦، ص ٣٦١)، ومن العناصر المحققة لهذا الافتتان المفاجأة والإدهاش أو النزوع إلى الغرابة، ذلك أن "للنفوس تحرك شديد للمحاكيات المستغربة لأن النفس إذا خيل لها في الشيء ما لم يكن معهودا من أمر معجب في مثله وجدت في استغراب ما خيل لها، ما لم تعهده في الشيء المستطرف لرؤية ما لم يكن أبصره من قبل ووقوع ما لم يعهده من نفسه موقعا ليس أكثر من المعتاد" (القرطاجني، ١٩٨٦، ص ٩٦)، وهكذا فالجمالية الشعرية تقوم في جانب مهم منها على الغرابة والخروج عن المألوف وتنويع الأساليب والاجتهاد في بناء الحيل لأجل التأثير في النفوس.

في حين يسعى الخطاب الحجاجي إلى التأثير في المتلقي من خلال حمله على التصديق بدعوى معينة اعتمادا على مجموعة من الوسائل الإقناعية لعل أهمها "تكيف الخطيب مع مستمعيه،

إذ إن كل شيء في الحجاج مرتبط به: فمقدمات الحجاج ينبغي أن يختارها الخطيب مما هو مقبول عند مستمعه"[] (مشبال، ٢٠١٤، ص ١٥٢)؛ أي من مجاله التداولي؛ ذلك أن الخطيب يفكر بشكل واع أو غير واع في من يسعى إلى إقناعهم.

**د. الاختيار**

يرتبط مبدأ الاختيار ارتباطا وثيقا بمبدأ الاحتمال، ذلك أن الأخذ بمبدأ الاختيار يقتضي وجود مجموعة من الاحتمالات نختار منها احتمالا معينا، ومعنى هذا أن الاختيار آلية إجرائية وتطبيقية لمبدأ الاحتمال، وتتعدد مستويات الاختيار في اللغة، بحيث "يبدأ من اختيار الأصوات المتجانسة واختيار الألفاظ المقابلة للمعاني، والاختيار من التراكيب حسب الأغراض والمقاصد واختيار المسارات الحكائية من وقائع الحياة لتكون نسقا سرديا. يتم ذلك في درجات يتفاعل فيها الإبداع والاتباع بعيدا عن الاضطرار والحتمية"[] (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، ص ٤٨).

وانطلاقا من التعريف الذي قدمه الأستاذ محمد العمري للبلاغة العامة يمكن التمييز بين مستويين في الاختيار؛ أولهما عام يتمثل في اختيار قطب التخييل (الإغراب) أو قطب التداول (المناسبة) أو هما معا، بحيث يحدد المتكلم في البداية طبيعة خطابه قبل أن يشرع في بنائه إذ تتدخل نوعية الخطاب بشكل مباشر في مكوناته وطريقة بنائه، بينما يتمثل المستوى الثاني في اختيار ضيق يتم داخل المجال التخييلي أو المجال التصديقي؛ بحيث يختار منشئ الخطاب الشعري من اللغة (اللغة والمعجم) ومن الصور التخييلية ومن المعاني الشعرية ما يلائم حالته الوجدانية التي يروم التعبير عنها، في حين يختار منشئ الخطاب التصديقي من الأفكار والحجج والأمثلة ما يمكنه من تحقيق مقصديته المتمثلة في دفع المتلقي إلى التصديق بصحة دوى معينة أو دفعه إلى القيام بفعل ما أو خلق الاستعداد لهذا الفعل.

وبهذا يظهر أن البلاغة تقوم على مبدأ الاختيار المتمثل في الإبداع والخروج عن المألوف والبعد عن الاضطرار، ولعل هذا ما دفع عبد القاهر الجرجاني إلى إخراج الإعراب من دائرة البلاغة "لأنه يخضع لقواعد مطردة تنتج نفس المنتوج، وهو الرفع والنصب والجر. في البلاغة لا يستحم منشئان بنفس الماء، بل لا يستحم المنشئ الواحد بنفس الماء مرتين" (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، ص ٤٨)، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدكتور محمد العمري قدم في معرض حديثه عن مبدأ الاختيار ضمن كتاب "المحاضرة والمناظرة" مجموعة من الأمثلة تكشف بما لا يدع مجالا للشك أن البلاغيين والمفسرين بل وكل من اهتم بدراسة الخطاب كانوا على وعي تام بأهمية مبدأ الاختيار، ومن ذلك وقوفه على مظاهر وتجليات الاختيار في نصوص الشراح والمفسرين المتمثلة في استعمال مجموعة من العبارات من قبيل: فضل، قدم، سوء اختيار... وإشارته إلى تمييز البلاغيين بين التراكيب القابلة للتعديل والتغيير؛ أي التي تحتمل أوجها متعددة والتراكيب غير القابلة للتصرف ومن ثم حكمهم ببلاغية الأولى، ولعل أهم مثال أورده هو حديث عبد القاهر الجرجاني عن التأثير البلاغي لصور التغيير الدلالي في صور التغيير النظمي التركيبي وغيرها من الأمثلة التي تكشف بشكل واضح أن البلاغة تقوم على الاختيار وتحارب الاضطرار.

**٢. مرجعيات مفهوم "البلاغة العامة"**

يبدو أن التعريف الذي قدمه الدكتور محمد العمري للبلاغة يختلف عن التعاريف المتداولة في الدرسين التعليمي والجامعي، كما أنه ينطوي على وعي تام بشمولية هذا العلم وتعدد روافده ومباحثه، ذلك أن "ما يسمى بالبلاغة مغروس في غابة من المعارف والعلوم، وليس من الصواب منهجيا دراسة أحد هذا العلم بمعزل عن العلوم الأخرى.

ISSN: 2706-6495

البلاغة لها ارتباطات بالنحو والتفسير وعلم الإعجاز وعلم الكلام" (كيليطو، ١٩٨٣، ص ٥)، ولعل هذا ما دفع العمري إلى تشبيه البلاغة بالإمبراطورية في كون حدودها غير مستقرة تخضع للتمدد والانكماش حسب القوة والضعف.

إن هذا التعريف بالرغم من كونه تعريفا مركزا يروم بناء بلاغة عامة للخطاب الاحتمالي ببعديه التخييلي والحجاجي، ومن ثم فهو يستمد مشروعيته من التراث البلاغي العربي ومن الدرس البلاغي الحديث؛ إذ لا يخفى على الباحث أن البلاغة بهذا المفهوم أي العلم الكلي الذي يشمل الخطاب الحجاجي وامتداداته، والخطاب التخييلي وأبعاده ترتبط بتصور حازم القرطاجني الذي حاول بناء بلاغة البلاغات "يتفاعل فيها التراث اليوناني بالعربي وتتقاطع فيها الشعرية بالخطابية والتخييل بالإقناع والواقعي بالخيالي والأدبي بالبلاغي في بوتقة علم كلي يستوعب علوم الإنسان واللسان" (مشبال، ٢٠١٤، ص ٢٧١).

من هذا المنطلق يجمع التعريف بين علمين أساسيين أولهما علم الخطابة أو الخطابية حسب تعبير الدكتور محمد العمري، ويراد بها "تلك الصناعة التي ينصب عملها على البحث في آليات اشتغال الخطيب والوسائل التي يستعملها لتحقيق الإقناع" (بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ١١)، أو ذلك العلم الذي يشتغل على الخطابة ويستخرج مكوناتها الحجاجية وتقنياتها، والثاني علم الشعر أو ما يعرف بالشعرية ويقصد به ذلك "العلم الذي يهتم بدراسة الشعر (الخطاب التخييلي) في ذاته بصرف النظر عن أنواعه وأغراضه" (مشبال، ٢٠١٤، ص ٢٦٠)، وهكذا تجمع البلاغة بين الخطابين التداولي / الحجاجي، والتخييلي / الشعري باعتبارهما موضوعين لها، ولكن هذا لا يعني أن الخطاب الذي تتناوله البلاغة بالدراسة والتحليل ينحصر في الخطابين الحجاجي والتخييلي، وإنما تنفتح على مختلف النصوص الاحتمالية المؤثرة؛ أي "الأجناس الأدبية الأخرى: بلاغة الرواية وبلاغة الشعر وبلاغة القصة القصيرة وبلاغة النادرة وبلاغة الحكاية العجيبة، على غرار حديث أرسطو عن بلاغة أجناس الخطاب التداولي (االمرافعة والخطبة السياسية والخطبة الاحتفالية) وحديث البلاغيين المعاصرين عن بلاغة الخطاب الإشهاري والسياسي بشكل خاص" (مشبال، البلاغة والأدب، ٢٠٠٨، ص ١٦)، وهذا يعني أن البلاغة ليست حكرا على خطاب معين، ولكنها تهتم بجميع الخطابات ذات البعد التأثيري، شريطة أن تكون هذه الخطابات من طبيعة احتمالية أي تحتمل وجهات نظر مختلفة ومتنوعة تتصارع وتتدافع، دون أن تدعي كل منها امتلاك الحقيقة لأن مجال البلاغة كما هو معلوم مجال نسبي تطبعه المرونة و"لا يمكن الحسم فيه بواسطة البرهنة الصارمة التي تكون نتائجها ضرورية ملزمة للجميع بل بواسطة حجاج يبقى على الدوام هشا" (بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ٥٥).

ويقع الخطاب الاحتمالي حسب بول ريكور بين الاعتباط أو الهذر في أسفل السلم والاستدلال البرهاني في أعلاه؛ ومعنى هذا أن الخطاب الذي تنشغل به البلاغة يقع في منزلة وسطى بين الخطاب الاعتباطي والخطاب العلمي الصارم القائم على الضرورة الرياضية أو الحتمية التجريبية.

وانطلاقا مما سبق يمكن القول إن البلاغة عند العمري تنقسم إلى بلاغتين أساسيتين؛ أولاهما بلاغة الإقناع والثانية بلاغة التخييل، بحيث تهتم البلاغة بدراسة الخطابين التخييلي والإقناعي تبعا لمجموعة من المعارف والآليات والأدوات والمفاهيم والمقامات والسياقات المساعدة على ذلك؛ وتتفرع عن البلاغتين مجموعة من البلاغات الخاصة من قبيل: بلاغة السيرة، بلاغة السخرية، بلاغة الخطاب الإشهاري، بلاغة الخطاب السياسي، بلاغة القصة، بلاغة الرواية... وهي بلاغات بالرغم من اختلاف أسمائها ومجالات اهتمامها "تبقى دائما رهينة من حيث الأسئلة والمفاهيم ببلاغتي التخييل والحجاج اللتين تعدان بمثابة مقاربتين لتحليل جميع أنواع الخطابات، ذلك أن كل بلاغة انطلاقا من مشروع العمري تروم الكشف عن أوجه التخييل أو الإقناع أو هما معا" (مشبال، البلاغة والخطاب، ٢٠١٤، ص ٢٨٩).

وليس ثمة شك في أن هذا التعريف الذي اقترحه الأستاذ العمري للبلاغة العامة له مجموعة من المرجعيات، إذ هو نتاج محاولة التوفيق بين مجموعة من المساهمات البلاغية منها ما هو مرتبط بالبلاغة الأرسطية ومنها ما هو مرتبط بالبلاغة العربية القديمة ومنها ما هو مرتبط بالدراسات البلاغية الحديثة في الثقافتين العربية والغربية، ويظهر ذلك أشد ما يظهر في المفاهيم التي اعتمد عليها الباحث في صياغته لهذا التعريف، بحيث تكشف عن تنوع المرجعيات المستفاد منها، فتعريف البلاغة بعلم الخطاب يستوعب مختلف الاجتهادات التي ساهم بها المنشغلون بالخطاب في التراث البلاغي العربي القديم كما أنه ينفتح على مختلف النظريات اللسانية الحديثة المرتبطة بالتواصل وعلى رأسها التداولية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ربط الخطاب الذي تهتم به البلاغة بالاحتمال يحيلنا مباشرة على نظرية الشبيه بالحقيقة ذات الأصول اليونانية؛ التي نشأت على يد السوفسطائيين وتبلورت على يد أرسطو الذي حدد مبادئها وأنواعها في كتابه الخطابة (انظر بنوهاشم، ٢٠١٤، ص ٥٣- ٥٦)، وقد استثمر الباحث هذا المفهوم، بحيث لاحظ أن الخطابين الإقناعي والتخييلي خطابان قائمان على الاحتمال "الاحتمال توهيما أو ترجيحا، التوهيم في التخييل والترجيح في التداول الحجاجي" (العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ٢٠٠٤، ص ١٥)، وعليه فالخطاب الشعري كذب يحتمل الصدق والخطاب الإقناعي صدق يحتمل الكذب، ويروم كل منهما تحقيق غرض أساسي يتمثل في التأثير ذلك أن "غاية كل الخطابات البلاغية (الأدبية والتداولية) إحداث التأثير في المتلقين، سواء كان تأثيرا فعليا (الإثارة والإفادة) أم تأثيرا جماليا (الإمتاع)" (مشبال، البلاغة والأدب، ٢٠٠٨، ص ٢٤ - ٢٥).

وهكذا يشترط الباحث في الخطاب الاحتمالي الذي تنشغل به البلاغة مكون التأثير باعتباره عمود البلاغة والأساس الذي يسوغ إطلاق تسميتها على أي مقاربة نظرية أو عملية تتوخى درس الوظيفة التأثيرية بتجلياتها في أنماط الخطاب الأدبي وغير الأدبي، وقد استمد الباحث هذا المفهوم من تصور حازم القرطاجني الذي يرى أن جوهر الخطاب البلاغي هو التأثير؛ إذ يقول ما نصه "لما كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشعر والخطابة، وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع (...) وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده" (القرطاجني، ١٩٨٦، ص ٧٢)، ومعنى هذا أن الخطابين الإقناعي والتخييلي يشتركان في خاصية التأثير؛ إذ يسعى الأول إلى التأثير في المتلقي من خلال حمله على التصديق بدعوى معينة، في حين يسعى الثاني إلى التأثير في المتلقي من خلال خلق نوع من الغرابة والطرافة الناتجة عن الجمع بين المتنافرات والتنويع في المعاني الشعرية.

ومن المفاهيم التي تكشف استفادة التعريف من التراث البلاغي العربي مفهوم الاختيار المتمثل في حرف العطف "أو" الذي يفيد التخيير، والاختيار في هذا السياق محصور في مستويين اثنين أولهما الإغراب والثاني المناسبة، وبهذا فالخطاب الذي تتناوله البلاغة إما أن يكون خطابا إقناعيا أو خطابا شعريا، بحيث يختار المتكلم طبيعة الخطاب الذي سينتجه ثم يحدد بعد ذلك الأصوات والألفاظ والتراكيب والمعاني التي سيوظفها تبعا للأغراض والمقاصد، والبلاغة العربية كما هو معلوم تقوم على مبد الاختيار باعتباره مبدأ يوجه مختلف الاجتهادات التي اهتمت بدراسة الخطاب الاحتمالي، وقد قدم الأستاذ العمري في معرض حديثه عن هذا المبدأ مجموعة من الأمثلة منها ما هو مرتبط بدراسة الخطاب الشعري كما هو الحال عند عبد القاهر الجرجاني ومنها ما هو مرتبط بالنص القرآني كما هو الحال عند المفسرين.

أما فيما يخص ثنائية المناسبة والإغراب فهي نابعة من مسار البلاغة العربية الذي يكشف عن تيارين كبيرين أولهما تيار البديع، الذي يستمد مقوماته من الشعر،

ISSN: 2706-6495

والثاني تيار البيان الذي يستمد مقوماته من الخطابة و"نظرا للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي فقد ظل التياران متداخلين وملتبسين رغم الجهود الكبيرة النيرة التي ساهم بها الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة أرسطو وشعريته" (العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ٢٠٠٤، ص ٢٩).

وبناء على هذا يظهر أن هذا التعريف الذي قدمه الدكتور محمد العمري للبلاغة العامة هو نتاج مجموعة من المرجعيات المتداخلة فيما بينها، بحيث عمل الباحث على التنسيق بين مجموعة الاجتهادات منها ما هو مرتبط بالتراث الأرسطي من جهة والعربي من جهة ثانية ومنها ما هو مرتبط بالدراسات البلاغية الحديثة من جهة ثالثة، محاولا "بناء بلاغة عامة للخطاب الاحتمالي التخييلي والحجاجي منخرطة في نقد الواقع ومنتصرة لقيم الحداثة والتحديث" (مشبال، البلاغة والخطاب، ٢٠١٤، ص ٢٥٧)، وهو عمل ينطوي على رؤية نسقية للتراث البلاغي بمختلف مصادره وروافده تقوم على رصد الخيط الناظم لمجموع الجهود التي انشغلت بالخطاب الاحتمالي، يقول الأستاذ العمري في أعقاب حديثه عن المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها البلاغة العامة: "هل تعتقد أنني أتيت بشيء من هذه المصطلحات والمفاهيم من عندي ؟ لقد بالغت، إذن، في حسن الظن ! أنا متبع في هذا المجال للكبار من القدماء والمحدثين. 'علم البطن' إنما ينسب للعنكبوت؛ هو الذي ينسج شبكته من بطنه متى شاء أينما شاء. ربما أدعي أنني أتيت بآخرها وأضعفها... أما الباقي فهو محفظ لأصحابه من القدماء والمحدثين" (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، ص ٧٧).

يكشف هذا القول عن أمرين أساسيين؛ أولهما هو أن البلاغة العربية الحديثة أو الجديدة تستوعب البلاغة القديمة بالتنسيق والنقد ثم البناء، ومن ثم فإن هذا التعريف امتداد لمسلسل البحث البلاغي ومحاولة للإجابة عن سؤال تعريف البلاغة الذي طُرح منذ البوادر الأولى لنشأة البلاغة، بحيث لا يخفى على الباحث في هذا المجال أن سؤال البلاغة من الأسئلة القديمة في التراث البلاغي العربي، ولعل أهم من طرحه بقوة وكثافة الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، الذي قدم مجموعة من التعريفات المقتطفة من ثقافات متنوعة، وهي تعريفات تكشف غموض هذا المفهوم وصعوبة تحديده لكونه مبحثا مركبا ومعقدا لتعدد مداخله وتنوع مراصده.

والثاني يتعلق بالآلية المنهجية التي اعتمدها الباحث في صياغة هذا التعريف وتتمثل في القراءة النسقية القائمة على رصد الخيوط الناظمة للمباحث البلاغية، وبناء تصور عام يستوعبها، بحيث "يجتهد العمري في اقتناص العلاقات داخل البلاغة العربية عن طريق ربط المعطيات والمكونات بعضها ببعض، مقيما بذلك علاقات فيما بينها" (مشبال، البلاغة والخطاب، ٢٠١٤، ص ٢٥٥)، ولعل هذا ما يفهم من قول الباحث "علم الباطن ينسب إلى العنكبوت الذي ينسج شبكته من بطنه...ربما أدعي أنني أتيت بآخرها وأضعفها"؛ فكأنه يشبه عمله القائم على التنسيق بخيط عنكبوت يروم رد الاعتبار للبلاغة العربية في شموليتها وجمع مباحثها في نسقية "تنسق البلاغات الخاصة وتتحدث باسمها في نادي العلوم المحيطة بها" (العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ٢٠٠٤، ص ٥).

ISSN: 2706-6495

## نتائج البحث

وانطلاقا مما سبق يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- يعد سؤال البلاغة من الأسئلة المركبة في الثقافتين العربية والغربية ويرجع ذلك إلى تعدد الروافد الفكرية والأدبية والفلسفية المسهمة في نشأة البلاغة؛ فقد تقاطعت منذ ميلادها عند اليونان مع المنطق والأخلاق والسياسة والأدب، وتداخلت عند العرب بالنقد والشعر وعلوم القرآن والتفسير، فلا تكاد تجد البلاغة إلا ملتبسة بغيرها من الحقول المعرفية، وهو ما يفسر تعدد التعريفات التي قدمت لها في التراث البلاغي العربي وهي تعريفات تعكس سعيا متواصلا للقبض على مجال يرافق الإنسان في وجوده؛
- تصدى لمهمة تعريف البلاغة مجموعة من الباحثين العرب لعل أهمهم الدكتور محمد العمري الذي عمل في مشروعه البلاغي على قراءة التراث البلاغي العربي قراءة نسقية تروم إعادة تعريف البلاغة تعريفا عاما يراعي الجهود الحديثة في مد سلطانها لاسترجاع ما ضاع منها في ظروف وهنها، ويستوعب كل منجزات البلاغة العربية القديمة؛
- يكشف هذا التعريف الذي قدمه الدكتور محمد العمري عن سعيه لبناء نظرية بلاغية حديثة تستمد مقوماتها من التراث البلاغي العربي القديم ومما انتهت إليه الدراسات البلاغية الغربية في مجال اللساميات التداولية ونظريات التواصل؛
- أصبحت البلاغة بهذا المفهوم مبحثا علميا عصريا ينفتح على مختلف مجالات الخطاب الاحتمالي الذي ينشد أثرا ما، ومن ثم فهي تهتم بمختلف الأجناس الأدبية، فتفرعت بذلك عن البلاغة العامة مجموعة من البلاغات الخاصة؛ فأصبحنا نتحدث عن بلاغة الخطاب الشعري، وبلاغة الخطاب الديني، وبلاغة الخطاب السياسي... بحيث هناك مبادئ نظرية عامة مشتركة بين هذه الأجناس وأخرى خاصة أو نوعية تختلف من خطاب لآخر، وعليه ينبغي أن يضع محلل الخطاب في الحسبان أن ثمة مسافة بين النظرية البلاغية العامة (البلاغة العامة) وبين البلاغة بوصفها مقاربة أو تحليل يأخذ بعين الاعتبار الخصائص المميزة لكل خطاب؛
- تكشف المفاهيم الأساسية التي يتضمنها تعريف البلاغة الذي اقترحه الدكتور محمد العمري عن تنوع مرجعياته، بحيث يمكن اعتبار هذا التعريف نتاج محاولة التوفيق بين مرجعيات متعددة: البلاغة الأرسطية، التراث البلاغي العربي، الدراسات البلاغية الحديثة في الثقافتين الغربية والعربية، ويصدر هذا الحوار بين البلاغتين الغربية والعربية عن قناعة ضمنية بندية بعض أعلام البلاغة العربية لأعلام البلاغة الغربية الحديثة بفضل ما تنطوي عليه جهودهم من عمق في النظر والتحليل، وفي ذلك دحض غير مباشر للمركزية الغربية التي تعتبر العرب مجرد ناقلين للتراث اليوناني قديما ومستهلكين للمعرفة الغربية حديثا.

## خلاصة

ننتهي من كل هذا الذي تقدم إلى أن مفهوم البلاغة العامة الذي اقترحه الدكتور محمد العمري ينم عن وعي تام بشمولية هذا العلم وانفتاحه إلى مجموعة من المباحث والعلوم، واستفادته منها في التعامل مع مختلف أنواع الخطابات، فهو وإن كان شديد الكثافة والتجريد يخلصنا من النزعات التجزيئية للبلاغة ويتجاوز التصورات الاختزالية التي تتخذ من تصور السكاكي ومن جاء بعده من الشراح والملخصين أساسا لها؛

بحيث وقر في أذهان مجموعة من الطلبة والباحثين أن البلاغة هي نتاج العلوم الثلاثة المشهورة: علم البيان، علم المعاني، علم البديع، بالشكل الذي وضعه أحمد مصطفى المراغي في كتابه "علوم البلاغة" المستلهم من تلخيصات كتاب "مفتاح العلوم"، وقد سار على منواله من جاء بعده مثل علي الجارم وعبد العزيز عتيق، والحال أن البلاغة أوسع من هذا التصور الضيق الذي يجعل منها علما يقف عند حدود مجموعة من الأساليب والصور التي تستهدف حسن البيان وكفاءة الكلام، فهي نتاج مجموعة من المباحث والعلوم التي اهتمت بالخطاب الاحتمالي الذي يتوخى التأثير في المتلقي بوسائل مختلفة تارة يهيمن عليها الإيهام والتخييل كما هو الحال في الخطاب الشعري وتارة أخرى يغلب عليها التصديق كما هو الشأن بالنسبة لمختلف الخطابات التي تسعى إلى حمل المتلقي على التصديق بصحة فكرة ما أو جعل هذا التصديق راسخا في ذهنه؛ وهكذا تنفتح البلاغة على مختلف أصناف الخطاب إذ لم تعد حكرا على النصوص الأدبية فحسب وإنما تتعامل مع مختلف الخطابات الاحتمالية التي تنشد أثرا ما، وقد أفرز هذا الانفتاح مجموعة من البلاغات الخاصة أو النوعية التي تفرعت عن البلاغة العامة فأصبحنا نتحدث عن: بلاغة الخطاب الشعري، وبلاغة الخطاب الروائي وبلاغة الخطاب الديني، وبلاغة الخطاب الإشهاري...، وبهذا يمكن اعتبار التعريف الذي قدمه محمد العمري للبلاغة محاولة جديدة وجريئة وغير مسبوقة تستفيد من التراث البلاغي العربي من جهة ومن الخطابة اليونانية من جهة ثانية وتستثمر ما انتهت إليه الدراسة البلاغية الحديثة في الثقافة الغربية من جهة ثالثة.

## لائحة المصادر والمراجع


- أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠١
- الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية، استانبول، الطبعة الثانية، ١٩٧٢
- ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١
- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦
- طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، ٢٠١٠
- محمد العمري، المحاضرة والمناظرة،أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٧
- محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠١٣
- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤
- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٦
- محمد مشبال، البلاغة والأدب، من صور اللغة إلى صور الخطاب، دار العين، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨
- محمد مشبال، البلاغة والخطاب، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٤
- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١

- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢
- عبد الله صولة في : في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١١
- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣
- Aristote, Rhétorique, ed. Livre de poche, 1991

جميع الحقوق محفوظة © 2020، الباحث منير بورد ، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي.

(CC BY NC)